



المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات
المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرراً

تنسيق: سفيان جاب الله



سبتمبر 2020

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي كراسات المنتدى

حقوق التأليف محفوظة للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

الطبعة : المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية- سبتمبر 2020

ISSN : 2724-6833

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات
المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس
**سياسات الدولة
والفئات الأكثر تضرراً**

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

الإدارة والتحرير:

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية 47 شارع فرحات حشاد، 1001، تونس

المدير المسؤول:

علاء الطالبي

أعضاء لجنة التحرير:

حياة عمامو، صلاح الدين بن فرج، رياض بن خليفة، نزار بن صالح،
ماهر حنين، سفيان جاب الله، مالك كفيف، محمد سليم بن يوسف

التدقيق اللغوي:

وليد فيّالة

صورة الغلاف:

حسام سعاف

طباعة:

الطباعة المتضامنة

المحتوى

| | |
|-----|-------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| | سفيان جاب الله |
| 07 | تقديم عام للكُراس |
| 22 | المحور الأول: في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة..... |
| | منال دربالي |
| 23 | لمحة تاريخية عن الأوبئة في تونس. |
| | حسام سَعّاف |
| 36 | هوموستازية المجتمع المختل أو في تضاعف إقصاء الهامش زمن الحدث الوبائي: قراءة أنثروبولوجية. |
| | آية بوصحيح |
| 49 | تعميق اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الفئات المجتمعية في زمن الوباء: (مقاربة قانونية). |
| | يوسف موسى |
| 60 | الأداء الخطابي لرئيس الجمهورية في السياق الوبائي: كيف خاطب الفئات الأكثر تضرراً؟.. |
| 76 | المحور الثاني: بورتريه الفئات السوسيو-مهنيّة الأكثر تضرُّراً من الحجر الصحيّ..... |
| | رضا كارم |
| 77 | النساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكوريّة الفضاء، والهيمنة المزدوجة..... |
| | هيثم مدوري |
| 94 | عمّال البناء: الواقع، الحَجْر والإجراءات. قراءة في آثار الجائحة وتفكيك الأزمة. |
| | أمل الهازل |
| 111 | عاملات النظافة في المُستشفيات زمن الجائحة: الفاعلات في المعركة من أجل الحياة..... |

منتصر النغموشي

- بورتريهات عاملي المقاهي والحانات في زمن الكورونا: من أجل رسم صورة للهشاشة الاجتماعية.....
126

فهيمى البلطي

- طبيب في مواجهة الكوفيد 19: كيف عاش الأطباء الموجة الأولى للوباء؟.....
145

محمد سليم بن يوسف

- أجراء القطاع الخاص والمسألة الاجتماعية في فترة الحجر الصحي: مجالات الفعل الجماعي والتسييس.....
163
- المحور الثالث: في رصد تحول/تغير كمي ونوعي لظواهر اجتماعية إبان الحجر الصحي
180

خالد طبابي

- ديناميكيات الهجرة غير النظامية في تونس: محاولة في قراءة المشهد الهجري زمن الوباء....
181

حازم شيخاوي

- في فهم العنف المسلط على النساء داخل الفضاءات زمن الكورونا.....
202

أحمد الساسي

- كيف عاشت الأحياء الشعبية جائحة الكوفيد 19؟ الكبارية نموذجا.....
214

المحور الثاني:

**بورتريه الفئات السوسيو- مهنية الأكثر تضرراً من
الحجر الصحي**

النساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكورية الفضاء، والهيمنة المزدوجة¹.

رضا كارم

الملخص

لم تغير مسارات الثورة أوضاع العاملات في القطاع الفلاحيّ تغييراً جذرياً، بل نعتقد أنّها سلّطت أضواء لا عهد لنا بها على مجمل الشروط التاريخيّة والرّمزيّة التي تصف نظام عمل هذه الفئة الاجتماعيّة في المزارع. فدفعت بقضيّتهنّ إلى طاولات النقاشات، ومركزتها ضمن الأدب الاحتجاجيّ و"سوسيولوجيا الفعل الجماعيّ في تونس"². ونحن ندرس رهن هؤلاء الكادحات ضمن سياق يسوده فيروس كوفيد-19، محاولين الكشف عن بنية الهيمنة الممارسة على الكادحات وتأصيلها ضمن سياقات إنتاجها وتأثيرات الحجر الصّحّيّ في علاقاتهنّ بمحيطهنّ العائليّ وموقعهنّ في سياسات الحكومة. ونهتمّ بفحص دور البطركيّة والهيمنة الذكوريّة في الاضطهاد المسلّط على عاملات القطاع الفلاحيّ والآثار السّوسيولوجيّة والطبقيّة والنفسية لعمليات الاضطهاد تلك خصوصاً ضمن راهنية يسودها سياق كورونيّ متشنّج. ونتسلّح ببعض المكتسبات النظريّة للدراسات الجندريّة والدراسات الذكوريّة، لمحاولة متابعة الجهود السّابقة ولكن من زاوية نظر مختلفة.

Abstract

The revolution paths have not changed the situation of women workers in the agriculture sector radically. Rather, we believe that it has brought to light all the historical and symbolic conditions that characterize it and describe the work system of this social group on farms, it pushed their cause into discussion tables and placed in the form of protest literature and the sociological of the collective action in Tunisia, and we are studying the situation of this hard workers in a context dominated by Covid-19 virus. Trying to reveal the structure of domination practiced on them and the effects of quarantine in their relationships with their family surroundings and their position in government policies. We are interested in examining the role of the patriarchal and masculine domination in the persecution of female agricultural workers as well as the sociological, class and psychological effects of such persecution especially in a current period of tension due to coronavirus. Armed with some theoretical gains of gender studies and masculinity studies to follow up on previous efforts but from a different perspective.

¹ أتوجّه بالشكر والعرفان إلى الأستاذة آمال قرامي، وخالد عبداوي، وكريم فارح، ومنذر اليوسفي، ومحجوب نصيبي، وعلاء حامدي، وبشير البوكاري، وطارق دريدي، وخالد عبيدي، ونسيم الكافي، وهدى بحرّوني.

² عنوان الكراس عدد 2 للمنتدى التونسيّ للحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة، إشراف، سفيان جاب لله، تونس، 2019.

في لحظات التحول الجذري - الثورة بالمعنى العتيق - فإن هذا على وجه الدقة ما يتيح القدرة الشعبية على ابتكار سياسة جديدة تماما، واقتصاد جديد تماما، وأشكال اقتصادية جديدة تماما.

ديفيد جريبر

أحبنا في مستهل هذه الورقة أن نضعها الموضوع الذي تدرج ضمنه حتى نؤسس لبيدات تواصل سليمة مع جمهور القراءة. فهي ليست عملا بحثيا أكاديميا خالصا، ولا هي من جنس المقالات المحكّمة. إنّه مقال منخرط في باب الكراسات التي يعدّها المنتدى التونسيّ للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، ونحن نخطّ عملنا هذا بهدف كتابة واقع الكادحات وقد انطبع بخاصية تاريخية وراهن معقد وملغز يسوده الكوفيد-19. وبذلك فإنّ المقال بعض من كراس يضمّ مقالات أخرى، وهو مؤطر "بفعل نضاليّ بحثي" يتحرّك معرفيا، مثلما نأمل، ضمن خطة ديفيد جريبر David Graeber في الذهاب إلى الفاعلين التاريخيين المهمّشين من قبل السّيادات الطبقيّة والسلطويّة المهيمنة لتمثّل واقع الجماهير وإدراك خلاصاتهم ومجمل حلولهم لمغالبة المآزق وتشديد حيواتهم رغمها³. وفضلا عن سياقات المقال المعرفية، لا بدّ من وضعه ضمن تاريخه المحايث الموصول إلى الحجر الصّحّي وأوامر الحكومة والخوف من الفيروس وأثاره.

فطالما أعاد زمن الأوبئة تشكيل بنيات التّمثّل والتّجريد والحركة وملامسة التّاريخ العيني. إنّه زمن تتخفّى خلاله المجتمعات خلف خطاب "التّباعد" لتأمين السّلامة العامّة للأفراد. ولم تنشأ مقولة التّباعد من وحي الرّاهن ومجازاته بل هي حالة تاريخية وخبرة راكمتها البشرية نجد صدى لها في كتاب المراقبة والمعاقبة لميشال فوكو Michel Foucault الذي أشار إلى "أنّ أعلى درجة يمكن أن تصل إليها السّلطة هي عندما يصبح النّاس الخاضعون لها يتوهّمون أنهم أحرار مخيرون. وهذا النوع من السّلطة لا يحتاج إلى تعاقد اجتماعي، بقدر ما يحتاج إلى إطار عام تتحرّك من خلاله السّلطة، بحيث تبدو أهدافها متّفكّة مع الاختيارات القسريّة للأفراد، كما هو الحال في زمن الأوبئة والكوارث"⁴.

فالخوف من الموت، يدفع النّاس إلى قبول سياسات العزل الكليّ للأفراد المسماة حجرا صحّيّا شاملا يمنع كلّ التّقاء بشريّ باعتباره مقدّمة حتمية لانتقال العدوى وانتشار الوباء بين المجموعات البشرية. وفي تقبّل هذا الحظر تنحسر حريّة الإنسان إلى مستوى البقاء مجردا من كلّ معنى خارج وجود جسديّ رثّ محاصر بالجدران وممنوع من الاتّصال الحميم بالآخر والمشاركة المباشرة في تدبّر الشّأن المعتاد بما في ذلك تقاسم حديث صباحيّ تؤمّنه قهوة لطيفة قبل الانصراف إلى العمل. إنّ

³ جريبر، ديفيد، وميلستين سيندي، الأناركية، والثورة، والإنسان، ترجمة، أحمد حسان، القاهرة، 2016، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحّية والمعلومات، ص-ص، 64-65.

⁴ أنزولا، علي، الطّاعون والسلطة، الرّابط: <https://www.alaraby.co.uk/opinion/2020/4/28/>، تاريخ النّشر، 2020/04/29، تاريخ الاطّلاع، 2020/05/04.

هذا الخوف من النهاية جعل الإنسانية قاطبة تقبل مجرد "الحياة العارية" بعبارة جورجيو أغامبن Giorgio Agamben؛ مجرد النجاة والخلص الفرديّ بما هما مطلبان ذاتيان لا يستقيمان دون هجر الآخر مجتمعاً كان أو ثلّة من الأصدقاء أو عائلة. "من الجليّ الآن أن الإيطاليين مستعدّون للتضحية بكلّ شيء أو ما يقرب من كلّ شيء: شروط حياتهم الطّبيعيّة، وعلاقاتهم الاجتماعيّة، مهمهم، وصولاً إلى صداقاتهم، ووشائجهم فضلاً عن اعتقاداتهم الدّينيّة والسّياسيّة حتّى لا يمرضوا. إنّ الحياة العارية- والخوف من فقدانها- ليس أمراً يضرّ بالإنسان بل هو إعماء للبشريّة وفصل بينها"⁵. والواقع أنّه ما من مجتمع أبدى سلوكاً مخالفاً جذرياً لسلوك الإيطاليين وخضوعهم الإرداديّ لسياسات الخوف التي تبوّها أو فُرِضت عليهم ضمناً.

يمكن أن نوّكد دون حذر علميّ أنّ المجتمع التّونسيّ بدوره لبيّ بطريقة أو بأخرى أوامر الحكومة التّونسيّة وانضبط لما قرّرتة من حجر صخّيّ وحظر جولان ليلاً ومنع كلّ تجمّع وإغلاق المقاهي والمطاعم والمؤسّسات التّربويّة والمساجد والأسواق فضلاً عن منع التّنقل بين الجهات وحتّى داخل الولاية الواحدة. ولكي ينجح مبدأ الفصل بين الأشخاص وتعميم ما سميّ لاحقاً "التّباعد الاجتماعيّ"، كان لزاماً على أهل الحكم تنظيم إجراءات الحجر حتّى لا يتحوّل الخوف من الموت كورونيّاً إلى الموت جوعاً. ولذلك تواصل عمل قطاعات عماليّة كثيرة أهمّها المخابز ومواد التّنظيف التي باتت ضرورة تجاوزت وظيفتها التّقليديّة إلى وظيفة حادثة قد تفوق في أهمّيّتها الأدوية، خاصّة وأنّ كوفيد-19 أبان عن بدائيّة تلك الأدوية التي طالما اعتقدنا في "نجاتها التّطبيبيّة".

ومن بين فئات المجتمع وطبقاته التي أعيها التّمهيش وتجاهلتها الدّاكتر السّوسيوولوجيّة والمذكّرة السّلطويّة لدولة الاستغلال، نشير إلى "المليون ونصف المليون" من العاملات والعمّال بعبارة الفخفاخ متحدّثاً عن الذين ظلّوا يكافحون في مقارّ تشيئتهم لصناعة ما به تستقيم نظافة البيئّة المنزليّة تعقيماً وتطهيراً من شوائب الفيروس من جهة، وما يؤسّس المائدة الغذائيّة اليوميّة من أطعمة وأشربة: خبزا، وخضرا، وغلالاً من جهة أخرى. وضمن هذه الفئات المهمّشة التي تباين تصريف جهودها بين الإحضار والتّغيب، نشير إلى النّساء العاملات بقطاع الفلاحة عامّة، وما يكابدنه من مشاقّ ينوء الرّجال بحملها. وهي مشاقّ لا تبدأ من معضلة التّنقل وشروطه الاستعباديّة، ولا تنتهي عند سياسات التّأجير المهينة والمخالفة للنّظم القانونيّة المتّبعة المسمّاة الأجر الأدنى

⁵ Agamben, Giorgio, «Qu'est donc une société qui ne reconnaît pas d'autre valeur que la survie?»,

<https://www.nouvelobs.com/idees/20200427.OBS28058/giorgio-agamben-qu-est-donc-une-societe-qui-ne-reconnait-pas-d-autre-valeur-que-la-survie.html>, publié, 27/04/2020, consulté, 05/05/2020.

الفلاحيّ. ذلك أنّ العودة إلى المنزل هي مواصلة للعمل من تنظيف وطبخ ومواصلة للعناية بالآخر ممثلة في الرّوج وحاجاته والأبناء وانتظاراتهم.

ونسعى في هذا المقال إلى تتبّع ملامح يوميات العاملات في الفلاحة في الشّروط التّاريخيّ المميّز بسيادة فيروس كوفيد 19 على الواقع والمعنى؛ سيادة برز بعض منها في بكاء ممثلي السّلطة وجزع جماعة الفريق العلميّ المؤهّل وفق منطوق أهل الحكم لقراءة يوميات الفيروس ويومياتنا استتباعا. ونسأل: فيم تتمثّل سياسات الحجر الصّحّيّ وأوامره ونواهيه في الحالة التّونسيّة؟ ما هي الصّورة العامّة للنّساء العاملات في حقول الفلاحة الرّاكبات "شاحنات الموت"؟ أيّ دلالة طبقيّة وجندريّة وذكوريّة وثقافيّة للحجر الصّحّيّ الذي ينتظر خروج النّساء إلى العمل دون شروط حماية مهما كان نوعها؟ لماذا يقتصر العمل الفلاحيّ في الحقول على النّساء دون الرّجال، خاصّة في الرّاهن من السّياقات الكورونيّة؟

المنهج

نعمد في مقالنا هذا على نصوص منشورة في مواقع إلكترونيّة وحلّلنا بياناتها واستفدنا من معطياتها. ولم نكتف بذلك بل تحدّثنا عبر "الميسنجر" إلى أصدقاء من سيدي بوزيد، وباجة شاركونا ما يعرفونه عيانا ويعيشونه يوميّا فضلا عن اطلاعهم المباشر من خلال العمل التّضامنيّ على البيّة الاجتماعيّة لعموم هؤلاء النّسوة وما يتعرّضن له من استغلال من أصحاب الشّاحنات التي تقلّهم ومن مالكي الأرض. وبذلك فإنّنا سنعمد "معطيات من الدّرجة الثّانية"، إن صحّت العبارة، وذلك لاستحالة التّنقل في هذه اللّحظة التّاريخيّة. ولتحليل المعطيات والبيانات والنّصوص والفيديوهات التي أمكننا جمعها، سنستأنس ببعض المكتسبات النّظريّة للدّراسات الجندريّة والدّراسات الذّكوريّة. ونرنو من خلال العرض النّظريّ اللاحق إلى تقديم الإطار العامّ الناظم لحركة التّحليل في حواريّة مع جمهور التّلقيّ تفترض تعريفا مسبقا ببعض المفاهيم وسياقات إنتاجها المعرفيّة، ومن ثمّ نقترح مدخلا إحصائيّا يتضمّن بيانات حول وضعيّة المرأة الريفيّة العاملة في قطاع الفلاحة.

الدّراسات الجندريّة والدّراسات الذّكوريّة

إنّ الدّراسات الجندريّة حقل بحثيّ يكشف عن تشكيل الأنوثة والذكورة لأشكال تفكير النّاس، وتمثّلاتهم لممارسات السّلطة والعلاقات بين الأشخاص وفهم مسائل مثل الهويّة والجنسانيّة. أي أنّهم يصفون على تلك القضايا صورة الرّوج أنوثة / ذكورة. وتركّز الدّراسات الجندريّة على نقد أبويّة المجتمعات واستتباعاتها المختلفة على الرّجال والنّساء وعلى المؤسّسات السياسيّة وقضايا الأسرة والعمل والفنّ والرياضة. وتمتّع هذه الدّراسات من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والفلسفة ومكتسبات العلوم الإنسانيّة في مختلف أنماط التّمثّل، وتشير إلى بنية النّظام القائم على

السيطرة على الإناث وقمعهم من قبل الذكور. وهي دراسات تهتم بتحليل النظام الجندري بأسره من جهة الوسائل التي تعتمدها الثقافات والمجتمعات والتنظيمات السياسية وأنماط التفكير في إنتاج مفهوم يقوم على الثنائية المتباينة للجندر، ثم اعتبار ذلك المفهوم قانونا يجدر بها اتباعه والخضوع إليه. فالجندر مقولة سوسيوثقافية وليس ظاهرة طبيعية. وتميل المجتمعات إلى تحديد كلا الجندين تحديدا بيولوجيا ومن ثم تتبني تصورات متخيلة حول ما يبدو لها اختلافا طبيعيا بين المرأة والرجل.⁶ وبناء على ذلك الاختلاف الطبيعي، يتم توزيع الأدوار الاجتماعية للمرأة والرجل ضمن المجتمع الواحد توزيعا جندريا يحول الفعل الاجتماعي إلى فعل مجندر خاضع لإديولوجيا التفوق الذكوري ودونية المرأة وتبعيتها.

أما الدراسات الذكورية فقد نشأت بما هي مبحث ضمن مجموع أبحاث النسويات وباعتبار الرجال جندرا بالنهاية وليس فيهم ما يميزهم من النساء⁷ غير التنميطات ذات الطبيعة الثقافية والاجتماعية التي تبدي انبهارا بالأندرو والفاليس Andro et Phallus أي الذكر والقضيب حتى تحوّلوا إلى نمطين فكريين يركزان ما هو ذكوري وما هو قضيبي، وبمّشان بالاستتباع ما هو أنثوي وما هو مدور كثيبي⁸. ولا تركز الدراسات الذكورية على الزوج أنوثة / ذكورة ولا على الوجهين الجندريين لبنية هذا الثنائي بل تحصر دراستها على الرجال بما هم جندر مستقل وتهتم بالبحث في التراتبيات والبطركية ضمن هذا الجندر والكشف عن حجم التناقضات داخله⁹. وهي تناقضات تنبني على بنيات اجتماعية وثقافية مثل العرق والإثنية والطبقة والسن واللون. وتطورت هذه الدراسات "في السنوات الأخيرة تطورا ملحوظا في الغرب فظهرت اختصاصات فرعية كعلم نفس الرجال وسوسولوجيا الرجال وذاع صيت عدد من الدوريات العلمية المتخصصة في هذه النوعية من الدراسات"¹⁰.

وتمثل هذه المرحلة التاريخية المتميزة بالحظر والإلزام والمنع والفرض والضبط أرضية خصبة لعودة الهيمنة الرجولية. إنها مرحلة تجعل وضع النساء العاملات بحقول الفلاحة وضعا أشبه ما يكون بمنبوذ جورجيو أغامبن الذي يستمر في الظهور "في الوجود المعاصر من خلال وضع المهتمشين والمقصيين واللأجئيين والمرحّلين إلى معسكرات الاعتقال. ومعسكر الاعتقال ليس مؤسّسة سجنية عقابية وحسب، بل هو اليوم كلّ فضاء لا تميز فيه بين الحياة العارية (...). نعني

⁶ Roof, Judith, Gender Studies, in Encyclopedia of Sex and Gender, edited by, Malti-Douglas, Fedwa, Detroit, 2007, p-p, 624-626.

⁷ لمزيد الاطلاع، انظر/ي، عبداوي، خالد، بناء الرجولة من خلال خطاب المغازي، إشراف، آمال قرامي، ماجستير مرقونة بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمتوبة.

⁸ Dialmy, Abdessamad, Ville, sexualité et islamisme, 2018, IMPR RECHERCHE, p-p, 44-49.

⁹ Kimmel, Michael, Masculinities, in, Men and Masculinities A social, cultural and Historical Encyclopedia, Edited by Michael Kimmel and Amy Aronson, SantaBarbara, Denver, and Oxford, 2004, ABC CLIO, p, 503.

¹⁰ قرامي، آمال، تصدّع بنية "الذكورة المهيمنة" ومحاولات إنقاذها، في باحاثات الكتاب الثاني عشر: تفكيك مفهوم الذكورة المهيمنة الرجولة والأبوة اليوم، بيروت، 2006-2007، المركز الثقافي العربي، ص، 101.

الحياة الطبيعيّة التي لا همّ لها إلاّ العيش ومواصلة البقاء والحياة المؤهّلة سياسياً¹¹. أي بين الوجود الحيوانيّ في حدّه البيولوجيّ والوجود الثّقافيّ بما هو فعل وتفاعل وخلق وصناعة موقف وسياسات.

مدخل إحصائيّ

يُلقي على المرأة أغلب ثقل العمل الفلاحيّ سواء تعلّق الأمر بتربية النحل أو تربية الدّواجن أو الأغنام والأبقار والماعز. وتصل نسبة النساء المهتمّات بتربية الدّواجن أو النحل إلى 14.3% مقابل 4.3% من الرّجال. وتعتبر المرأة الرّيفيّة العاملة بقطاع الفلاحة المسؤول الأوّل على طعام أفراد العائلة وهنّ مطالبات بالعبء بمطالب الأطفال والزّوج. وتقوم 67.2% من النساء بهذه الأعمال مقابل 2.5% من الرّجال. ومن بين 33.9% من المستجوبين الذين أعلنوا أنّهم ينهضون بأعمال منزليّة، تشير البيانات إلى نسبة 64.4% من النساء مقابل 1.5% فقط من الرّجال. ومن بين المعطلين عن العمل غير الباحثين عن شغل، ونسبتهم قياساً إلى مجموعة المعطلين أكثر من 25%، تقع المرأة الرّيفيّة في أعلى سلّم التّهميش وتصل نسبة إقصائها إلى 41.2% مقابل 8.5% من الرّجال. وتقتصر مهن المرأة الرّيفيّة على "الإعانة المنزليّة"، والرّعي، والعمل الفلاحيّ ذي الأجر المنخفض، والنساء مطالبات أكثر من الرّجال في المجال الرّيفيّ بإنجاز الأعمال الفلاحيّة المتنوّعة وتحمل مشاقّها وأعبائها. وتزداد معاناة المرأة الرّيفيّة في حال تظافر عوامل ضاغطة مثل قضايا التّمدرس والشيخوخة والمرض. ذلك أنّ نسبة عالية من النساء الواقعات ضمن آثار هذه العوامل يواصلن رغم ذلك القيام بالأعمال المنزليّة ويعتبرن أنفسهنّ غير معنيّات بالبحث عن فرص شغل خارج منازلهنّ. ومن الجليّ وجود تقسيم واضح للأدوار في العائلة الرّيفيّة. إذ تظهر الأرقام أنّ المرأة تساهم ب 12.9% من نفقات العائلة ولا تساهم في القرار المتّصل بالنّشاط الاقتصاديّ العائليّ إلاّ بنسبة 3.5%. ووحده الزّوج من يقرّر في مسائل مثل التّربية بنسبة 72.7%. ويستبعد ما يقرب من ثلث النساء من عمليّات بيع المحصول فيما يشير 66.7% من المستجوبين إلى فعل تشاركيّ بين المرأة والرّجل. أمّا إذا رغبت المرأة في تغيير نشاطها دون استشارة زوجها، فإنّ 25.4% من النساء يفعلن ذلك، مقابل 74.6% من الرّجال. ويبدو الشّبّان من الجندرين أكثر استقلاليّة وأقدر على الدّفاع على هذا الخيار¹².

وممّا توصّلنا إليه من مقاطع فيديو ومن شهادات ميدانيّة، نشير إلى تباين صريح في الأجور بين النساء الفلاحات والرّجال، وإلى استغلال لا قانونيّ للعاملات في قطاع الفلاحة اللّاتي لا يتجاوز الأجر بالنّسبة إليهنّ عتبة 13 ديناراً في أفضل الحالات و10 دنائير في الغالب الأعمّ. ولم يتغيّر الوضع كثيراً أثناء الحجر الصّبيّ العامّ، بل مازلنا إلى أيّامنا هذه نشهد حوادث مرور قاتلة تذهب عاملات

¹¹ أغامين، جورجيو، المنبذ السلطة السيادة والحياة العارية، ترجمة، عبد العزيز العيادي، بيروت، 2018، منشورات الجمل، ط1، ص، 6.

¹² B'chir, Abdelkhalck, Lahmar, Hafed, La femme acteur émergent rapports de genre et mutations multiformes dans le monde rural Etude sociologique dans le centre-ouest de la Tunisie, CREDIF, 2016, p-p, 140-151.

الفلاحة ضحايا لها دون قدرة أجهزة الدولة على بذل أيّ جهد لتغيير واقع التنقل فضلا عن قضايا الأجر والمساواة والضمان الاجتماعي والتغذية الصحية.

حقوق الفلاحة التونسية فضاءات خارج الحجر الصحي وخارج تمثيلات السلطة

أعلنت الحكومة التونسية الحجر الصحي ابتداء من 22 مارس المنقضي. وأورد موقع "حقائق أونلاين" ما يلي: "أفادت رئاسة الحكومة في بلاغ لها بأنه على إثر اجتماع مجلس الأمن القومي المنعقد اليوم الجمعة 20 مارس 2020 انتظم مجلس وزاري مضيق بإشراف رئيس الحكومة إلياس الفخفاخ للتداول في التدابير العملية والإدارية لتنفيذ القرارات المعلن عنها من قبل رئيس الجمهورية. وأكدت أنه تقرر انطلاق العمل بالحجر الصحي العام ابتداء من يوم الأحد 22 مارس على الساعة السادسة صباحا ويتواصل إلى غاية 4 أبريل 2020"¹³. واستثنت الحكومة من المعنيين بإجراءات الحجر العاملات والعاملين في القطاعين العام والخاص في مجالات "الغذاء، الصحة، الإدارة، القضاء، الطاقة، الأمن، الماء، النقل، الاتصالات، الإعلام، النظافة والأنشطة الصناعية الحيوية"¹⁴. ولم يشر بيان الحكومة إلى النساء العاملات بالمزارع رغم أنّهنّ يشكّلن 80% من اليد العاملة في القطاع الفلاحي¹⁵ وفق ما أفادت به نائبة الزغلامي الكاتبة العامة للجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات.

وفي جميع تدخّلات رئيس الحكومة ومجمل الأسئلة التي تلقّاها لم يشر البتّة إلى النساء العاملات في القطاع الفلاحي، ولم يتعرّض إلى أدوارهنّ الاقتصادية، ولا إلى أوضاعهنّ في تلك المزارع وأشكال تنقلهنّ وظروف ذلك التنقل. ولم تكن أسئلة محاوراته ومحاوريه لتلتفت إلى وضع أولئك النساء، فقد كان الإلحاح السياسي والملفات التي تنبئ بالفساد المبرّر من الدولة في خطاب رئيس الحكومة، أكثر أهميّة وضروريّة من حياة عاملات تعرّضن يوم 8 ماي المنقضي إلى حادث جديد أدّى إلى مأس جديدة¹⁶ لا تشير إليها بيانات الحكومة زمن الحجر الصحي وفي الزمن العاديّ على حدّ السواء. وقد يعود ذلك إجمالا إلى ثقافة سياسيّة سائدة في تونس، قوامها أنّ الأعلى صوتا هو الأقدر على فرض شروطه.

¹³ انظر/ي الرّابط التالي: <https://www.hakaekonline.com/article/117016/>، تاريخ النّشر، 2020/03/20، تاريخ الاطّلاع، 2020/05/11.

¹⁴ موقع حقائق أونلاين، <https://www.hakaekonline.com/article/117016/>.

¹⁵ الشّيخاوي، يسرى، العاملات بالقطاع الفلاحيّ عن نساء يضمنّ الأمن الغذائيّ بالعرق والدّم، <https://ultratunisia.ultrasawt.com>، تاريخ النّشر، 2019/09/27، تاريخ الاطّلاع، 2020/05/05.

¹⁶ انظر/ي الخبر في الرّابط التالي، <https://www.nessma.tv/ar/>، تاريخ النّشر والاطّلاع، 2020/05/08.

وباعتبار أنّ عاملات الفلاحة غير منتظمات في هياكل نقابية أو جمعوية، ولأنهنّ منسيات من المتدخلات والمتدخلين في العمل المدني، فإنّ دولة الأمر الواقع القائمة لم تتمكن بعد من إدراك اللا تلازم الصّارخ بين الأدوار الاقتصادية للعاملات في قطاع الفلاحة، ونظام التّأجير وأشكال الرّعاية الاجتماعيّة ومستويات تنظيم تلك الأدوار وتقنيها ومراقبة الأرستقراطية المالكة للأراضي الفلاحيّة الكبرى وعلاقتها بالنّساء، نقلا، وتوصلا، وتأمينا ضدّ الفيروس، ووسائل تطهير، وضمانا لخطط عمل تجنّب إكثبات انتقال العدوى بين العاملات. وليس غريبا أن يستند العقل السّياسي للحاكمين إلى مخيال عامّ يغذّي التّصورات والأفهام ويطبّعها بخصائص هيمنية موصولة إلى الزّوج رجل مهيمن/ امرأة خاضعة.

ولكنّ تجاهل رئيس الحكومة وأسئلة الصحّافة للنّساء العاملات بالقطاع الفلاحيّ، يشي بتجنّد مقارنة سياسيّة تميل إلى التّركيز على ما تمّ تنفيذه، وتناى بنفسها عن طرح ما لم يُلْتَفَت إليه، وظلّ طيّ النّسيان. التقى الفخفاخ محاورين، كان يتسيّد الصّورة مبتسما فيما جلس الصحّافيان مصطفيّين أفقيّا يطلقان كلّ مرّة سؤالاً يشكّل في الحقيقة فرصة خطابيّة لرئيس الحكومة ليسترسل في إمدادنا بمعطيات نعلم أنّها غير صادقة. يتحرّك الفخفاخ خطابيا ضمن نظام مدرّوس صوتيا ومعجميا. كان يتخيّر مفرداته، ويتحكّم بالصّوت رفعا وخفضا وفق مؤشّرات تداوليّة ضاغطة على الجالسين أمامه دون قدرة على ردّ تهافته، وعلى الجالسين خلف أجهزة التّلفاز منتظرين قرارات تخرج عن الأطر التقليديّة وتنتهي إلى موائد المفقرين والمهمّشين. ولا شكّ أنّ عاملات القطاع الفلاحيّ انتظرن من هذا السّياسي إجراءات فوريّة لم تأت ولا يبدو أنّ موعدها قريب أو ممكن دون ما يكفي من الضّغط.

إنّ ما رشح من تجاهل في الخطاب لعاملات حقول الاستلاب بعض من المألوف سلطويّا والدّارج المعتاد إعلاميا. فقد عوّدتنا سياسات الرّأسماليّة المتوحّشة على النّظر إلى العالم باعتباره انعكاسا لمصالحها الخاصّة، وهي لا تعبأ لقضايا اجتماعيّة حارقة كالتي نحاول تقديمها¹⁷. وبنظّارات تأويليّة، سنلفي الحكومة ممثّلة في رئيسها تتأبّط الفيروس وتستدعيه للتّغطية على عقود من التّهميش تطال المرأة العاملة بالفلاحة¹⁸. يستلقي كوفيد 19 على طاولة الفخفاخ النيوليبراليّة مستأذنا جماعة

¹⁷ تعبر الاحتجاجات الشّعبيّة المتواترة منذ 2012، عن وجود مأزق عميق عصي عن الحل. يمكن تلخيص هذا المشكل في تواصل سياسات التّفاوت الجهويّ والإقصاء الطّبيقيّ والتّهميش لفئات اجتماعيّة واسعة. تكفي رؤية صفوف التّونسيّين أمام مراكز البريد انتظارا لمنحة حكوميّة، لتَمثّل جزء من المشكل. والعملية الانتخابيّة هي تنافس بين مرشّحين ضمن سياق مغلق تمّ إحكام تسيّجه بالقوانين حتّى لا يتسرّب إليه مظنون في خلّو سجلّه من رفض السّلطة والهيمنة والليّاتهما الخفيّة في الخطاب والممارسة.

¹⁸ يجمع فلاسفة وعلماء اجتماع ومفكّرون مثل شومسكي ودافيد هارفي وهابرماس وآلان باديو وجوديت باتلر وجورجيو أغامبن وإدغار موران وآلان توران على ضرورة الانتهاء من الرّأسماليّة المتوحّشة أو النيوليبراليّة. في حين تواصل الحكومات ضخّ أموال دافعي الضّرائب لإنقاذ كبرى الشركات الاحتكاريّة. ولا يختلف الحال عندنا من إجراءات لدعم المؤسّسات وتجاهل الحرفيّين والعاملات في القطاع الفلاحيّ وغيرهم من الفئات الهشّة. يمكن متابعة أغلب هذه المواقف على الرّابط التّالي، <https://www.afrigatenews.net/article/>. وتجدون موقف آلان باديو على هذا الرّابط، <http://awanmedia.net/opinion-analysis/> ونُشر موقف دافيد هارفي على هذا الرّابط، <https://couua.com/2020/03/25/>

الصّحّة معلنا أنّه تحت الطّلب الخطابيّ، وأنّه جاهز ليكون بضاعة تموهية ومعجما رمزيًا وسوقًا خطابيًا حارسًا لمقالات السّلطة مخفيا لفشلها مؤسسًا لذريعة خصوصيّة المرحلة وسيادة الكوفيد19، وفرضه لاشتراطات من خارج إرادة الإصلاح وخطاب "الريشة" الشّهير للفخفاخ.

إنّه تغيب نمطيّ لا جديد حوله، وهو جوهر العنف الرّمزيّ الظّاهر في التّهميش ذاته. ففي حدث النّسيان ثمة حدث حضور¹⁹، والحاضر هنا استتباعا عن النّسيان هو مجموع المنسيّات في مزارع الفلاحة. ونسيانهم تعبير عن ترابطيّة طبقيّة بين الفخفاخ رجل الأعمال البورجوازيّ المنحاز إلى الطبقة المهيمنة، وعاملاتنا المغيّبات. ثمّ هي ترابطيّة اجتماعيّة بين أصحاب رأسمال سياسيّ فرضوا حضورهم وصاحبات الأدنى من رأس المال هذا اللّاتي غُيبن. وهنّ ضحيّات عنف رمزيّ "هذا القهر اللّذي لا ينشأ إلّا عبر وساطة الانخراط اللّذي لا يتأخّر المسيطر عليه على منحه للمسيطر"²⁰، عنف رمزيّ ناتج عن تطّيع ثقافيّ واجتماعيّ، ودخلنا لأنظمة هيمنة سلطويّة طبقيّة وجندريّة وثقافيّة رمزيّة تمرّ خفية دون تسجيل حضورها. وهي ترابطيّة جندريّة يتجاهل من خلالها المسيطر الذّكر المسيطر عليها الأنثى ولا يشكّل خطابه المرکز على طمأننتها اجتماعيًا من خلال تشييد سوق لغويّة تزيّف الوعي، أيّ أمل في الحلّ لأنّ الواقع العينيّ مازال خاضعا للبورجوازيّة والذّكوريّة.

صورة المرأة كادحة في حقول الاستلاب قبل انتشار الفيروس

وأثناءه

لمحاولة تعرّف الملمح العامّ لهذه الكادحة اعتمدنا على مقاطع مصوّرة: الأوّل من إنتاج الاتّحاد العامّ التّونسيّ للشّغل²¹، والمقطع المصوّر الثّاني من إنجاز المنتدى التّونسيّ للحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة²² وفيديو ثالث منشور على موقع "برّ الأمان"²³. وفضلا عن ذلك، جمعنا اتّصال بصديقين من سيدي بوزيد وصديق من باجة. وقد أكّدوا جميعا معرفة دقيقة بوضعيّة الكادحة في أعمال الفلاحة باعتبار عامل الجيرة والعمل التّضامنيّ عند بعضهم. واعتمدنا بعض البيانات من الصّحافة المكتوبة والإلكترونيّة وتقارير مختلفة أمكننا الوصول إليها. ونشير في البداية

¹⁹ لمزيد الاطلاع، انظر/ي، بنعبد العالي، عبد السّلام، أسس الفكر الفلسفيّ المعاصر مجاوزه الميثافيزيقا، الدّار البيضاء، 1991، دار توبقال للنّشر، ص-ص، 39-59.

²⁰ شوقالييه، ستيفان، وشوفري، كريستيان، معجم بورديو، ترجمة، الزّهرة إبراهيم، الجزائر، ودمشق، 2013، دار الجزائر، ص، 219.

²¹ يوميات المرأة الرّيفيّة بالقطاع الفلاحيّ غير المنظّم: المشاكل وظروف العمل،

<https://www.youtube.com/watch?v=DvQvFbsprDQ>، تاريخ النّشر، 2016/09/06، تاريخ الاطلاع، 2020/05/12.

²² العطار، حياة، عاملات القطاع الفلاحيّ زمن الكورونا : منسيّات أيضا، <https://ftdes.net/ar/femmes-agricole/>، تاريخ النّشر، 2020/04/11، تاريخ الاطلاع، 2020/05/05.

²³ فلاحات تونس يوم عمل=9د، <https://www.youtube.com/watch?v=COKF146N7n8>، تاريخ النّشر، 2020/01/06، تاريخ الاطلاع، 2020/05/12.

إلى مآزق الأرقام المتباينة واختلاف طبيعة العمل الفلاحيّ بين مناطق الشّمال الغربيّ ومناطق الوسط التّونسيّ باختلاف المنتج ذاته وما يتطلّبه من جهود طويلة موسم فلاحيّ كامل.

ونحن نتحدّث عن نساء يضعن على رؤوسهنّ ما اجتمع لديهنّ من أوشحة متّخذة أغطية للرّأس وقاية له، وأغطية للشّعر تلازما مع مقولات الحشمة المتجدّرة اجتماعيّا. ومن بين هذه الأغطية "المحرمة" المحتفلة بربيع دائم يظهر في الأزهار التي تزيّنها، و"الحجاب" وهو وشاح أكبر من المحرمة ويضمن مزيدا من الدّفء. وتلفّ الكادحات أجسادهنّ بما توفّر من معاطف وألبسة صوفيّة تتحدّى شدّة البرد بالإكثار من الخشن من اللّباس. ولذلك يرتدين سراويل رياضيّة فوقها لباس فضفاض، وجوارب صوفيّة خشنة، وينتعلن حذاء قديما تخلّى عنه الابن أو الزّوج، أو يرتدين "البوت" الشّهير الذي يغطّي السّاق ويؤمّن تنقلا يسيرا في الحقل أو المزرعة، وبقي من القرّ شتاء. ولا تكاد هذه الملابس تختلف جذريّا بين الفصول مثلما يؤكّد ب. ب من باجة. فاتّقاء الأغبرة يفرض وضع لثام على الوجه ولباسا يغطّي اليدين حتّى المعصمين وسروالا يمنح المرأة القدرة على التّنقل السّريع وهي تضع فوقه فستانا واسعا لا يظهر شيئا من جسدها ويغطّي ما عجز السّروال عن حجبها.. وهنّ مرفوقات بسلات تجتمع فيها وجبات غذائيّة وقارورة من ماء. ولا تضع أيّ من النّسوة لثاما مانعا لنقل العدوى أو قفازات واقية مثلما يفترض ولا تستفدن من وسائل التّعقيم أثناء العمل. أمّا في أيّام رمضان الحاليّة فإنّهنّ يبدأن العمل باكرا ويعدن إلى منازلهنّ السّاعة العاشرة والنّصف تقريبا وفق شهادة ب. ب من باجة.

ومما تقدّم تشكّل صورة إنسان محجوب يعمن في إخفاء ذاته مغالبة للمناخ ومصادقة على متخيّل اجتماعيّ وثقافيّ سائد واتّقاء لوصم ينتهي تنميّطا متعدّد الطبائع. كادحة تواجه البرد الشّديد بالصّوف، والحرّ الشّديد بلثام تقدّه فورا من حجابها، وتواجه الكوفيد-19 بوجه عار معلنة تجاهله ورفض قراره المتواطئ مع الدّولة عبر الحجب أو من خلال استيطان الأجساد وكولونياليّة الكورونا. تواجه الكادحة عوامل المناخ والوباء الطّارئ بإستراتيجية ذات بعدين. فهي تختفي خلف حُجب من لباسها شتاء وصيفا، وتختفي خلف أغطية الرّأس وما رشح من فتنة الجسد وراء المزيد من اللّباس الواسع، فتسكت "فتنتها" المعلنة ثقافيّا وتسكت فرص الطّمع الممكن ذكوريّا أي بمنطق العقل الذّكوريّ المسيطر. وتدخلن بذلك قيم المجتمع لتصبح تمثّلاتها الخاصّة. وهي تمثّلات²⁴ لا تتغيّر أثناء العمل المضنيّ الذي يحتاج إلى التّخفّف من ثقل الملابس للقدرة على الحركة السّريعة وتحمل التّعب. فتصرّ الكادحة على الاحتجاب استجابة للقرار الاجتماعيّ بحجبها باعتبارها امرأة حاملّة لجسد الرّغبة وحضور النّفس الشّهوانيّة، وتحتجب مناورة لإخفاء قعود زوجها أو ابنها وخروجها

²⁴ يعتبر جون كلود أبريك أنّ للمثّلات الاجتماعيّة أربع وظائف، وهي الوظيفة المعرفيّة، والوظيفة الهويّة، والوظيفة التّوجيهيّة، والوظيفة التّبريريّة. ونحن نوّكد في هذا السّياق على الوظيفة التّوجيهيّة فحسب. لمزيد الاطلاع يمكن العودة إلى:

Abric, Jean-Claude, Les représentations sociales: aspects théoriques, in Pratiques sociales et représentations, Paris, 1994, Presses Universitaires de France, p-p, 20-24.

بالمقابل إلى الأهوال، ثم تحتجب لمقارعة الطبيعة ومغالبتها بوسائل بسيطة وهو احتجاج إراديّ نابع من الدّات. وهي بهذا كادحة تصمّت جسدها وتقمعه خضوعا واختيارا؛ خضوعا من حيث أنّ حجب النّساء فرض اجتماعيّ وقانون عامّ يهيكل المتخيّل، وتسندة أعراف وتقاليد وموروثات ثقيلة الأثر متجدّرة في القدم. واختيارا ينتج عن تقبّل الخضوع باعتباره ضرورة أملتها التقاليد والموروثات نفسها. وهي أبنية ثقافيّة منغرسه في أصول دينيّة وأخرى أبعد من الدّين وأقرب إلى سياسات الهيمنة الذكوريّة القائمة على غلبة القضيب على الكثيب، وفلسفة الرّكوب وما تشير إليه من سيطرة الرّاكب وتبعيّة المركوب وهي في مثالنا المرأة القائمة بأعمال الفلاحة.

لكنّ حجب الجسد وإخفائه عند مغادرة المنزل وركوب وسائل النّقل إلى المزارع ومن ثمّ العودة إلى المنزل، لا تنفي تعريته الاقتصاديّة واستغلاله عاريا من كلّ كرامة. فصاحب الأرض لا ينشغل عامّة بما هو محتجب وهو منحاز إلى تكديس الأرباح وغير شغوف باكتشاف المتواري غالبا. على أنّه يعرّي حاجات النّساء إلى الغذاء والملبس والسّكن وتعليم الأبناء وخلافها من هموم اليوميّ. وبذلك يعرّي طاقات الجسد، ويفكّ شيفرات الحشمة، ويتوغّل في التّعرية ساعات حتّى يظفر منهنّ بمنتوج وفير يضمن الأرباح المأمولة. وفي انهماك الجسد العاري من وقار الحقوق وهيبة التّأمين الصّحّي وقداسة الأجر المجزي، تظهر الدّات الجشعة لبورجوازيّة لا تلوي على شيء غير استنفار تلك الأجساد وسلّمها حرّيتها واستعبادها. وهو يعلم أنّها أجساد ظمئة إلى التّحرّز من نير الفقر المدقع والمسكونة بأمل خادع في الخروج من عباءة العري أو استغلال أجسادهنّ فيما يماثل الاغتصاب الاقتصاديّ المبرّر سلطويّا والمباح بمنطق الدّولة المتواطئة ضدّ من همّشهنّ.

وهنّ كادحات أميل إلى الصّورة الأسطوريّة لمحاربات الأمازون، عندما تخرجن إلى مواجهة وباء، تأمرنا الحكومة بالاختباء تجنّبا لأذيتته، بوجوه مكشوفة وإعلان مواجهة معقّدة تقوم على التّجاهل الذي يصل حدّ الإنكار. "نخرج صباحا من السّابعة حتّى الثّالثة بعد الزّوال. زوجي في المنزل، ليس من عمل، بسبب الكورونا. هو نائم في المنزل قاعد عن العمل، ولديّ أربعة أطفال كيف سأوقّر حاجاتهم دون خروجي إلى هذا العمل؟"²⁵ إنّهنّ يغادرن أمان الجدران المانعة لانتقال الفيروس بين أفراد عائلتهنّ، ليخرجن إلى العمل الشّاقّ مواجهات خطر الإصابة بالمرض العضال الذي يخشاه الرّجل صاحب السّلطة؛ الفخفاخ رئيس الحكومة والزّوج المستلقي على فراش الحجر الصّحّيّ اضطرارا. وأثناء هذه المواجهة ليس من صادّ لمغامرة العمل ضمن ظروف وبائيّة. تظهر في الصّورة وجوه نساء يغطّين أفواههنّ فحسب بأغطية رؤوسهنّ، ولسنا واثقين من أنّ ما يقمن به عمل وقائيّ من اجتراحهنّ لمحاولة منع أيّ عدوى، أو ربّما هو تصرّف معتاد لمقاومة الأغبرة وما ينبعث أحيانا من روائح مزعجة نتيجة استعمال المبيدات. وفي كلّ الحالات، ليس من لثم مهيبّة لمنع العدوى ولا من مياه وصابون لغسل اليدين بين الفينة والأخرى وليس من وقت للقيام بذلك ولا معقوليّة لحركة

²⁵ عاملات القطاع الفلاحي زمن الكورونا: منسيّات أيضا، مقطع مذكور، من الثّانية 12، إلى الثّانية 26.

مماثلة، لأنّ الجني أو العزق أو الحفر أو حمل الأكياس أو صناديق الخضر والغلال حركة دؤوبة مستمرة ولا تحتمل قطعها كلّ عشر دقائق من أجل تلبية نصيحة طبيّة بغسل اليدين مقاومة لاحتمال العدوى.

الرجولة والاضطهاد فعلا وانفعالا²⁶

في المشهد نساء منتشرات بين الحقول التي تسلمهنّ حرّياتهنّ وتضطهدهنّ مستفيدة من تواطؤ الدولة بأسرها²⁷ وصمت المجتمع وتخاذله والجموح البورجوازيّ إلى الرّيح الوفير الفوريّ. وخلف المشهد رجال خارج الحقول مسلوبو القرار ومسلوبو الدّور ومسحوقون ينتظرون عودة زوجاتهم لممارسة طقوس الذّكوريّة ومحاولة إيهام الذّات برجولة القرار والحكم المنزليّ في مستعمرة خلو من كلّ مظاهر الكرامة. أراض فلاحية مجندرة تغمرها أوشحة مرهقة وعرق يتصبّب غزيرا وأنوثة مستلبة. صاحب الأرض يدفع لهنّ في هذا الظّرف الوبائيّ ثلاثة عشر دينارا وصاحب البيت وفق السّائد ثقافيا يأخذ منهنّ ما تيسّر لتوفير حاجات العائلة. يقول ب.ب، "إنّ زوجها ضخم يكاد شارباه يعقلان بغلا، ولكنّه ينتظر عودتها ليرحل نحو السّوق". هناك سيّدعي أنّه صاحب القوامة، هو لن يصحّ بذلك جهرا، لكنّ حركته ستشي بأنّه رجل حاكم بأمره ولا خروج عن طاعته. سيشتري ما أمكن ثمّ سيعود إلى البيت وليس على فمه لثام. لقد وضعه داخل رأسه ليصمت ثورة داخل عقله تسائله ألف مرّة: "كيف لا تخرج إلى العمل وتخرج إلى السّوق؟ ليست الكورونا من تمنعك بل لعلّه أمر مختلف". لا يذهب العقل بعيدا في التّعرية، ويظلّ مكتفيا بإيحاء كاف لتخريب توازن نفسيّ هشنّ، يتكرّر حدث خلخلة بناه يوميا.

الكورونا الفاعل المعريّ الحاجب تفضح الرجولة المبنية اجتماعيا²⁸ وفق مقالات الفحولة والفتوة والقوامة والدّف عن الأهل والأرض، وتحجب ما تلقاه الرّجل من تنشئة اجتماعية تحوّلت إلى مقولات إيديولوجية نهائية. "الحقول للنساء وحدهنّ ولا اختلاط فيها. ولأنّ الأجر زهيد فإنّ الرّجال لا يقبلون العمل في تلك الظّروف، فيما تخرج النّساء مضطّرات إلى العمل"، وفق ما أخبرنا به م.ن.ع.ح من سيدي بوزيد. ويشكّل هذا الحجب الرّمزيّ تغطية على واقع أنّ الرجولة التي خسرت مواقعها الاقتصادية في المنزل فقدت هيمنتها رمزيّا وتمّ تأنيثها عمليا. فخرج المرأة إلى العمل يقابله قعود الرّجل، وبين التّاهض والقاعد فجوة ثقافية تشير إلى الفاعل مقابل العاجز، وإلى الكريم مقابل

²⁶ نركز في هذا القسم على صورة الرّجل المهمّش مقابل صورة الرّجل المهيمن. نحن لا نجزم بأنّ جميع الرّجال بلا عمل ويكتفون بانتظار بناتهم أو زوجاتهم، بل نقدّم الصّورة التي وجدناها في ما وقع بين أيدينا من مقاطع مصوّرة. وقد ذكرت الشّهادات أنّ أعدادا من الرّجال عاجزة أصلا عن العمل لأسباب صحيّة. إذن نحن لسنا في مستوى التّعميم أو التّنبؤ الاجتماعيّ والثّقافيّ.

²⁷ يكشف تعدّد حوادث شاحنات نقل العاملات وتواصلها في هذا السياق الوبائيّ، عن تواطؤ أجهزة الدولة من وزارة الفلاحة ووزارة المرأة ووزارة الدّاخلية ورئاسة الحكومة. وهو تواطؤ بالصّمت وادّعاء الأحدث.

²⁸ الرجولة بناء اجتماعي وثقافيّ ثابت وهي عكس الذّكورة المتغيرة والتّاريخية، لمزيد الاطلاع، انظر/ي،

Whitehead , Stephen M. , Manhood , in international encyclopedia of men and masculinities, edited by, Flood Michael and others , Abingdon , 2007,Routledge, 1st published , p,380 .

البخيل، وإلى القيم مقابل التابع. وبذلك يهيمن "التشويش الجندري" بعبارة جوديت باتلر Judith Butler ويزلزل الأدوار الاجتماعية للأنوثة والذكورة²⁹. وفي عملية الزلزلة يحصل قلب للأدوار الجندرية³⁰ ذاتها، وينتهي التشويش على تلك الأدوار إلى ضرب فعلي للمكانة الاجتماعية للرجل ضمن العائلة باعتباره قائداً، وتحويله إلى فرد ينتظر إعالته مثل الأطفال.

ترتسم في هذا المستوى صورتان: صورة الرجل المضطهد المهتمش اقتصادياً والمؤنث سلطوياً بقرار حكومي قديم مازال فعله يستمر حاسماً في التاريخ المحايث، وصورة الرجل المضطهد البورجوازي المهيم الذي انفتحت أمامه قوانين وكلائه في الحكم وانعكست تغطية على جرائمه. وهكذا تنكشف بنيتا الهيمنة والهامشية. رجولة مضطهدة طبقياً وملغاة عملياً تراقب انقلاب سلطتها المنزلية الموروثة ثقافياً والمؤمنة سوسولوجياً إلى انحسارات متواترة ضيّقت الخناق على أنطولوجيا الرجولة بعد أن سحقت السلطة أنطولوجيا الإنسان. يدافع رجل يكافح للحصول على عمل في الفلاحة عن نفسه فيقول: "لا يترك الفلاحون تعمل حتى إذا رغبت في عمل آخر غير جمع الجلبان، فهم يفضلون توظيف النساء بدل الرجال"³¹ ويصنعون دون وعي صراعاً حول القوامة في البيت، مازال في الغالب رمزياً ولا يُعلم إذا ما تحول في بعض الحالات إلى مقاومة نسائية لقوامة مهداة لم تكتسب على الأرض جهداً وعملاً. وربما يكون الوسط الريفي ضاغطاً عنيفاً ورئيساً حجب ارتفاع أصوات نساء يفتككن تدبير شؤون الأسرة كاملة من الرجال وتغيير الشروط الجندرية للعلاقات داخل العائلة بالكامل.

أما الرجولة المضطهدة فلا تبدي أي احترام للجسد العامل المكافح من أجل جماعته العائلية الخاصة. تقول كادحة من بلاريجيا بأحواز جندوبة المدينة، "نصل إلى المزارع والطقس بارد والتلج يتساقط وأحياناً يرفض الفلاح أن يمنحنا زمناً لإشعال النار طلباً للدّفء ويطلب منا أن نباشر العمل على الفور"³²، في حركة لا تلتزم غير سرديّة المغنم واستغلال هذه الكائنات الحيّة حتى تحقيق القدر الأقصى الممكن من الإنتاجية وما يستتبعها من ربح. هي رجولة تسلعن الجسد وتشيّ الكينونة البشرية وتستثمر مآسي العاملات مرّات ومرّات. فالرجولة المهيمنة³³ بعبارة راويين كونل Raewyn Connell تفضّل توظيف النساء وتستغلّ ما علق بالمتخيّل من رفض الرجل جمع البطاطس

²⁹ Butler, Judith, trouble dans le genre le féminisme et la subversion de l'identité, traduction, Cynthia Kraus, Paris, 2005, La Découverte, p-p, 45-46.

³⁰ Roof, Judith, Ibid, p-p, 616-617.

³¹ فلاحات تونس يوم عمل=9د، مقطع مذكور، من الدّقيقة 4 و15ث، إلى الدّقيقة 4 و22ث.

³² فلاحات تونس يوم عمل=9د، مقطع مذكور، من الثّانية 27، إلى الثّانية 37.

³³ في كتابها، ذكورات، تحدّد راويين كونل عالمة الاجتماع الأسترالية أربعة تمفصلات تاريخية لذكورات متعدّدة، هي الذّكورة المهيمنة، والذّكورة المتواطنة، والذّكورة الخاضعة، والذّكورة المهيمشة. نركّز في عملنا على ذكورتين وهما المهيمنة والمهمشة. ونعرّب masculinity بالرجولة، لأنّ الرجولة بناء ثقافي واجتماعي ونظام قبلي مغلق وهو المصطلح الأنسب لسياقنا الاجتماعي والثقافي المحلي (الوطني). لمزيد الاطلاع، انظر/ي الكتاب،

Connell, Raewyn, Masculinities, Berkeley, 2005, University Of California Press, 2nd edition, p-p, 76-77.

والجلبان والخيار والفول، مقابل إقبال المرأة على أعمال مماثلة. يقول م.ن: " تعمل المرأة لعشر ساعات لقاء مبلغ بين عشرة دنانير وخمسة عشر ديناراً، والرجل لا يقبل ذلك" و"يفضّل العمل بالسّاحل في البناء لأنّ الأجر أكثر ارتفاعاً" وفق ع.ح. ونتيجة اضطهاد هذه البورجوازية للعمّال من جهة، وطبيعة الأعمال المقيمة ثقافياً باعتبارها غير لائقة برجل، ثمّ نتيجة قدرة البعض على التّنقل خارج الأرياف للعمل بقطاعات غير الفلاحة من جهة ثالثة، تحافظ الرّجولة المهيمنة على علاقات عمل تصل حدّ الاستعباد وفق شهادات مصوّرة كتنا أشرنا إليها.

وبهذا يكون الاضطهاد قدراً رجولياً يسير في اتجاهين متناقضين بين الفعل الاضطهادي في جهة، والانفعال بنتائج ذلك الاضطهاد في جهة مقابلة. رجولة منكسرة تخضع للاستغلال وتضطهد، ورجولة مفرطة في الهيمنة منتشية بثرواتها تضطهد. ويمكننا القول إنّ الرّجولة التي تعاني من سلب العناصر المكوّنة لبنية رجولتها هي "رجولة مهمّشة" طبقياً وتعاني بدورها من ازدواج الهيمنة. ونقصد بذلك هيمنة السّلطة وسياسات التّفاوت الجهويّ الحادّ، وتأييم المجتمع لرجل يترك زوجته تخرج إلى العمل وهو إمّا مكتف بالبقاء في المقهى مثلما يشير إلى ذلك مقطع الفيديو المصوّر في بوسالم أو شهادة ب. ب. من باجة، أو يغادر الرّيف ليعمل بمناطق حضرية وفق شهادة كلّ من م.ن. وع.ح. وفي جميع الحالات يطلّ تقييم البعدين عن المأساة الاجتماعيّة والطّبقية والمكتفين بالفرجة ومسرحة التاريخ، حكماً قاسياً على هذه الرّجولة المنكوبة أو "المهمّشة" بعبارة كونل دائماً. وبين الرّجولتين تتموقع المرأة مستلبة بين الأرض والمنزل وبين العمل الفلاحيّ والعمل المنزليّ وبين الأجرة والمجانبة المفروضة. وإذا كان الوضع الأكثر حضوراً في المجتمع هو تبعيّة النّساء للرجال بما هي تبعيّة اقتصاديّة واجتماعيّة تحدّد الأدوار ضمن المؤسّسة العائليّة تنظيمياً ما قبلية ومعترفاً به، فإنّ وضعيّات العاملات بالقطاع الفلاحيّ تحفل بتناقضات عميقة، وأشكال متنوّعة من الاضطهاد.

الاضطهاد المزدوج لعاملات الفلاحة ووجوه المتعدّدة في الرّاهن الكورونيّ

إذا سلّمنا بالواقع القائم وترتيباته القانونيّة، أي وجود دولة ترعى مصالح النّاس جميعاً، واعتبرناه وضعاً شرعيّاً، وهو ليس كذلك بالمرّة من وجهة نظرنا، فإننا نرى أنّ اضطهاد العاملات ذو ثلاثة وجوه ذكوريّة سلطويّة. ونبي على ما عرضناه من شهادات لنذهب إلى أنّ صاحب الأرض يسرق جهود الكادحات عندما يخالف نصوصاً قانونيّة صريحة تحدّد الأجر الأدنى الفلاحيّ ب15.504د، تضاف إليه منحة عامل مختصّ قيمتها 0.826د أو منحة عامل ذي كفاءة مقدارها 1.555د³⁴. ولا

³⁴ أمر حكومي عدد 455 لسنة 2019 مؤرخ في 28 ماي 2019 يتعلق بضبط الأجر الأدنى الفلاحي المضمون. الرابطة،

تعتبر الكادحة الريفيّة مختصّة ولا ذات كفاءة، رغم أنّها أهمّ فاعل في عمليّة الإنتاج. وفي كلّ الأحوال، فإنّ جميع ما بين أيدينا من معطيات يحصر الأجر بين 9 و15 دينارا ويُقدّر بـ13د في زمن الكورونا يُخصم منها معلوم التّنقل، مع انعدام كل تغطية اجتماعيّة أو حماية صحّيّة أو بدل تنقل أو بدل طعام. وهذا يشي باستغلال اقتصاديّ فائق يصل إلى حدود سرقة أغلب الأجر، ودفع فتات الفتات فحسب، وهو الوجه الطّبيقيّ للاضطهاد الذّكوريّ.

ولمّا كانت الدّولة وأجهزتها التّنفيذيّة والتّشريعيّة والقضائيّة عليمّة بطبيعة الاستغلال المشار إليه، ولم تبد أيّ استعداد حقيقيّ لوقفه فهي تعدّ بذلك جزءاً من المشكلة. وقد أشرنا إلى تجاهل الفخفاخ طيلة ظهوره الإعلاميّ لمجهودات الكادحات وهنّ دون ريب يوقرن في هذه المرحلة مائة بالمائة من الخضر والغلال، والأجهزة السّلطويّة تدرك ذلك تمام الإدراك وتغمض عيونها بالكامل عن أشكال نقل عاملات كُنّا لنجوع أو نهلك دونهنّ. وبدل وضع سياسات فوريّة لمراقبة أنظمة التّأجير وطرق استلام الأجور ومعضلة النّقل وشروط الحماية من العدوى، انزاحت الرّجولة المتسلّطة في أعلى هرم الدّولة إلى انتهاج "التّواطؤ الذّكوريّ" والتّغطية على فظاعات البورجوازيّة وجرائمها الثّابتة عياناً. وتشكّل هذه التّواطؤات الوجه السّياسيّ والإيديولوجيّ للاضطهاد الذّكوريّ.

وبالعودة إلى المنزل لا تتوقّف مسيرة المعاناة بالنّسبة إلى الكادحات، بل يخفت صوت الاضطهاد الطّبيقيّ وتعلو أشكال أخرى من الاضطهاد. بعضها بين في صراخ أطفال ينتظرون خدمة، أو أب أو زوج أقعدتهما الأمراض، أو أمّ عاجزة عن الحركة، أو زوج قاعد فارّ من مواجهة مسؤوليّاته في حالات محدّدة. تعود الكادحة زوجة أو ابنة لتطهو طعاماً وتغسل أثواباً وربما تراقب طفلاً يستعدّ لإنجاز فروض منزليّة أخوا كان أو ابناً، وهي بين هذا وذاك تتخلّص من ضغط البورجوازيّ وسائق الشّاحنة وتقع تحت ضغط الواجب العائليّ والمسؤوليّة التي ألزمت بها جنديّاً. ذلك أنّ المطبخ من عمل النّساء دون الرّجال، وكذلك الشّأن بالنّسبة إلى الثّياب غسلها ونشرها وكّيّها وطّيّها. إنّها الأدوار الجنديّة ضمن البيئّة المنزليّة والتي تُؤدّي فقط، أي تُؤدّي لأنّ ذلك من نتائج التّقسيم الجنديّ للعمل والوظائف في البيت على الأقلّ³⁵. وهي أعمال تُصنّف وضيعة في المخيال العامّ الريفيّ بشكل خاصّ، وإنّ رجلاً ينهض بأعمال مماثلة إنّما هو رجل يهين الشّروط لوصمه بشبه الرّجل الواقع تحت هيمنة زوجته واليائس من مقومات الفحل المسيطر والممسك بتلابيب السّيادة والمعتّف للزّوجة أو الابنة إن صدر منهما شائن وفق التّنميط الثّقافيّ والاجتماعيّ. وبذلك فإنّ عشر ساعات من العمل وساعات أخرى من عمل آخر، يزيّنان يوميّات كادحة تقع بين هيمنة وأخرى واستلاب وآخر وتصميم

³⁵ العمل المنزليّ ضمن المتخيّل الثّقافيّ هو عمل غير مأجور. وهو نتاج تقسيم أدوار على أسس جنديّة لم تُراجع عندنا مراجعة واسعة وفي الأوساط الاجتماعيّة الريفيّة خاصّة حيث تهيمن الأبويّة على البنى الاجتماعيّة وتعطلّ إمكانيّة التّفاوض معها. للمزيد من الاطلاع انظر/ي، كانديوتي، دينيز، التّفاوض مع النّظام الأبويّ، ترجمة، سيرين الحاج حسين، <https://hekma.org/>، تاريخ النّشر، 201/06/30، تاريخ الاطلاع، 2017/07/30.

دائم. ويدلّ العمل المنزليّ ونظام القوامه وواجبات الكادحة تجاه زوجها أو أبيها أو أخيها على الوجه الاجتماعيّ والثّقافيّ للاضطهاد الذّكوريّ.

إنّ هذا الاضطهاد ثلاثيّ الأبعاد في زمن وباء كونيّ مماثل "يعكس اللامساواة الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي ستصنع فيروسا عنصريًا لا يمارس الفيروس في ذاته التمييز غير أنّنا نحن البشر، نمارس ذلك باعتبار تكويننا وحركيتنا في إطار القوى المتشابكة في القوميّة والعنصريّة ورهاب الأجنب والرأسمالية. ويبدو من المحتمل أنّنا سنصل السّنة المقبلة إلى سيناريو مؤلم إذ يطلب مئات من النّاس حقوقهم الطّبيعيّة في الحياة على حساب الآخرين أي إعادة إنتاج التّمييز المخلّ بين الحياة الأليمة والحياة المستحيلة، أي بين أولئك الذين ينبغي أن يكونوا محميين ضدّ الموت بأيّ ثمن وأولئك الذين تعتبر حيواتهم غير حقيقة بأن تحمي من المرض والموت"³⁶. ونضيف إلى اللامساواة الاجتماعيّة والطّبيقيّة لا مساواة جنديّة، تظهر أيضا في أجر العامل الفلاحيّ الذي يصل إلى ضعف أجر العاملة³⁷.

خاتمة

لم يكن حضور الكورونا مؤثرا في تغيير واقع الكادحات في العمل الفلاحيّ، بل أكّدت ما هو قائم في البنية التّاريخيّة العينيّة وراسخ في المتخيّل الجماعيّ من سلب وجود المرأة وفكّها عن حميميّتها واعتبارها شأنًا رجاليًا خالصا أي مكّونا من مكّونات الرجولة وحاجة جنسيّة تناسليّة لتأمين الإنجاب واقتصاديّة للقيام بأعمال المنزل والتّهوض بأعبائه من جهة، ومتابعة الخضوع في المزارع السّالبة للوجود الحرّ من جهة ثانية. لكنّها ضحيّة سلطة لا ترى من ضرر قد يلحق بالكادحة جرّاء الخروج إلى العمل الفلاحيّ دون أيّ شكل من أشكال الحماية والتّأمين وإجراءات الوقاية والسّلامة ضدّ الكوفيد-19. وبهذا تكون الكورونا سياقًا تاريخيًا زاد تعرية سلطة بلا حشمة تتمايل عارضة قضيبها وما من رجولة تتصدى.

والرجل الذي ينتظر زوجته هو ذاك المهّمّش المصمّت اللامرئيّ السّاكن ريفا قصيّا والذي يسكنه جوع تاريخيّ إلى الكرامة. إنّه بعض من "رويحة" صاحب البيضة الذي لم نعرفه إلا بعد أن تحرّكت كاميرا الدّولة المتسوّلة إلى الرّيف. تقول هـ.ب. وهي من المحيط العائليّ لـ"رويحة": "إنّه معدم وساذج وقد أهلكه الفقر إهلاكا". والزّوج أو الأب منتظرين زوجة أو ابنة تعود محمّلة بعبء رمزيّ وتعب عنيف وعنف رمزيّ يتمايل بين مسيطر متوحّش ومسيطر عليها قابلة، ليس بالضرّورة وحشا قاعدا عن العمل. إنّه من زاوية الدّراسات الذّكوريّة رجل مهّمّش طبقيا ومغيّب أنطولوجيا ومنفيّ

³⁶ Butler, Judith, Capitalism Has its Limits, https://www.versobooks.com/blogs/4603-capitalism-has-its-limits?fbclid=IwAR3N5j5XzI9MzOM31GDtImCMnW5GXV4bx_gm1hikz_W2tGQoEft-o57-gdk Usa-1584098952-, published, 30/03/2020, consulted, 05/05/2020.

³⁷ فلاحات تونس يوم عمل=9د، مقطع مذکور، من الدّقيقة 4 و10ث، إلى الدّقيقة 4 و20ث.

إبستيمولوجيًا من دائرة المعرفة. هو مهمّش لا يعرف، ولم يعرف رغم سنوات من الدّرس في مدارس النّظام الّتي أسكنت في رأسه بؤسا تطبّع عليه سابقوه في الوجود. فأنظمة السّوق المدرسيّة تعيد إنتاج البضاعة اللّغويّة السّائدة وتضبط المناويل الجندريّة ذاتها وتقدّم تنشئة اجتماعيّة مفلسة. ولذلك لم نظفر برجل مختلف "يزامن تاريخه" بعبارة الجابري، ويسكن واقعه الخاصّ لا واقعا ماضيا. ونحن نشاهد هذا عينيا مثلما نشاهد كادحات الأعمال الفلاحيّة يُسلبن حرّيتهنّ ويخضعن للعنف الذّكوريّ وأنظمة السّيطة الإيديولوجيّة ومقالات البطركيّة ويُزرعن في مواقع الإنتاج مجردات من كلّ وجود غير الوجود الميكانيكيّ للجسد العامل. وربما يكون من أوكد المهامّ النّضاليّة لمرحلة ما بعد الكورونا، طرح قضيّة النّساء العاملات بالفلاحة طرحا جذريّا يعيد لهنّ على الأقلّ بعضا من كرامتهنّ في انتظار تثوير البنى المهيمنة على الواقع، أي البنى الذّكوريّة الّتي خرّبتنا نساء ورجالا دون استثناء، وإن كان الخراب عند النّساء أظهر. "سنحتاج علاقة تشكّل تنتج نسيجا جديدا" نابضا بالحياة ومنخرطا ملتزما بقضاياه الكبرى مثل بعض الحركات الاجتماعيّة الّتي برزت³⁸ وتمّ تحليل بنيتها وأشكال تحرّكها.

³⁸ جاب الله، سفيان، "مانيش مسامح، فاس نستناو، باسطا" مقارنة سوسولوجيّة للحملات الشّبابيّة في تونس، في سوسولوجيا الفعل الجماعيّ في تونس منذ 14 جانفي 2011 في تونس تعدّد طرق الانخراط وتنوّع أشكال الاحتجاج، تونس، 2019، المنتدى التّونسيّ للحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة، والمرصد الاجتماعيّ التّونسي، ص، 151.

بدعم من:

